وازدادت هذه الظاهرة في عهد الحاكم العزيز بالله [٣٦٥ـ٣٨٦ هـ] الذي تزوج من امرأتين نصرانيتين، كانت إحداهما أم ولده الذي تولى الحكم سنة ٣٨٦ هـ، ولقب بالحاكم بأمرالله الفاطمي، ولقد عمل هذا الخبيث على تقريب النصارى أكثر وأكثر، ولا عجب من أمثاله في ذلك، فقد كانت أمه وجاريته نصرانيتين، وتلقى تربيته وعلمه على أيدي النصارى، وعيَّن شقيق جاريته النصراني أسقفاً بالقدس، وكان وزيره (عيسى بن نسطور) نصرانياً، وطبيبه (أبو الفتح منصور بن معشر) نصرانياً، وكان نائبه في سوريا يهودياً؛ ولكن على الرغم من كل ذلك عاد الخليفة العبيدي (الحاكم بأمر الشيطان) فانقلب على النصارى وعلى اليهود إلى الضد ثم رجع مرة أخرى إلى تقريبهم واسترضائهم.

وفي عهد الخليفة الظاهر والخليفة المستنصر بالله أبرمت المعاهدات بين الدولة الفاطمية والدولة الرومية البيزنطية النصرانية، وأدى هذا إلى رواج وانتعاش الوجود النصراني في المدينة المقدسة، وفتح ذلك أعين النصارى على الاستيلاء على هذه الأرض فيما بعد.

وفي عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧١م) بعث ألب أرسلان السلجوقي بجيش إلى فلسطين، استطاع به أن ينتزعها من يد الدولة الفاطمية، وأقام الدعوة العباسية بالقدس.

ثم استعاد الفاطميون الباطنيون القدس من السلجوقيين مرة أخرى عام (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م) في زمن الخليفة الفاطمي المستعلي بالله، ولم تلبث القدس أن انتزعها الصليبيون من يد أوليائهم الفاطميين الذين كانوا من الأسباب الرئيسية في النكبة الصليبية التي حلت ببيت المقدس.

سقوط القدس في يد الاحتلال الصليبي:

لم يكن نجاح النصارىٰ في انتزاع بيت المقدس من أيدي الفاطميين مصادفة بلا خلفيات، لا . . بل إن الذي يدرس تاريخ الروافض ويتعرف علىٰ هويتهم المشبوهة يسهل عليه استيعاب حقيقة الأمر الذي سارت عليه الأحداث.

فالدولة الفاطمية الرافضية كانت إحدىٰ الحركات الباطنية التي أعملت معاول الهدم في صرح الأمة الإسلامية، وكانت أيضاً سبباً في ضعف دولة الخلافة العباسية، وشارك أمراء السلاجقة الذين ظهروا نتيجة ضعف الدولة العباسية في التضحية بالأرض المقدسة، وتعامىٰ الطرفان عن الخطر الصليبي منشغلين بالصراع بينهما.

وما أشبه الليلة بالبارحة ـ عندما انشغل العرب والترك بالنزاع بينهما حتىٰ استلب النصارىٰ الإنجليز أرض فلسطين ثم أسلموها إلىٰ اليهود. . ولا تزال الليالي تشبه البارحات.

لقد بلغ من عمالة الفاطميين ـ أو بالأحرىٰ الباطنيين العبيديين الروافض ـ أن استعانوا بالصليبيين للقضاء علىٰ السلاجقة الأتراك! وفي الوقت الذي كان الصليبيون في طريقهم إلىٰ القدس، وكانت مدن الشام تتساقط تحت أقدامهم، كان الفاطميون والسلاجقة يتناوبون التنازع علىٰ المدينة المقدسة متجاهلين خطر الجيش النصراني ـ إذا لم نقل: متواطئين علىٰ دخول الجيش النصراني ـ ولم يحرك قائد الفاطميين (الأفضل شاهنشاه) ساكنا إلا عندما جاء الخبر بحصار الصليبيين للقدس.

ولاحت الفرصة الذهبية لأهل الصليب لكي ينفثوا أحقاد قرون خلت في جسد الأمة الإسلامية، ولكي يحققوا حلماً دينياً وهدفاً سياسياً ومغنماً اقتصادياً

لا تعوض فرصته . . خاصة وأن الوقت كان في بدايات الألفية الثانية التي اعتقدت طوائف كثيرة من النصارىٰ أن المسيح عيسىٰ بن مريم سيعود فيها إلىٰ الأرض ليحكمها كلها من القدس؛ انطلاقاً مما يسمىٰ بالعقيدة الألفية التي كانت سبباً في عصرنا هذا أيضاً لتعاون النصارىٰ مع اليهود في السيطرة علىٰ بيت المقدس كله استعداداً لمقدم الألفية الثالثة، ألفية المسيح[1].

لقد انتهزت الزعامة البابوية النداء الذي وجهه البطريرك (سمعان الثاني) بطريرك القدس، و(بطرس الناسك)، وتوجه إلىٰ مجمع النصارىٰ عام ١٠٩٥م، ودعا إلىٰ شن حروب مقدسة ضد المسلمين لإخراجهم من بيت المقدس، فاستجاب ملوك وأمراء الإقطاع في أوروبا الوسطىٰ والغربية، لأن في تلبيتهم لهذا النداء استجابة للدعوات الألفية التي كانت منتعشة في ذلك العهد، إضافة إلىٰ أنها فرصة لتحقيق حلمهم القديم في إقامة امبراطورية جديدة في الشرق علىٰ غرار الامبراطورية الرومانية التي قصم المسلمون ظهرها في صدر الإسلام.

وتقدم جيش النصارىٰ يدق نواقيس الحرب في ألف وخمسمائة فارس وعشرين ألف راجل، ولولا الخذلان والضعف الذي كان مستولياً علىٰ جيش الفاطميين والسلاجقة لكان القضاء علىٰ هذا الجيش الصليبي سهلاً. وحاول الحاكم الفاطمي (افتخار الدولة) التصدي للغزو الصليبي ولو من باب الظهور بمظهر الغيرة ولكن الوقت كان قد تجاوزه، وخصوصاً بعد أن طلب النجدة من الخليفة فلم تصل إليه، فعرض علىٰ قائد الصليبيين (ريموند) مبلغاً عظيماً من المال مقابل الإبقاء علىٰ حياته وحياة حرسه الخاص.

وهكذا وقعت القدس في يد النصارىٰ بعد أربعين يوماً من الحصار، استبسل

(١) راجع كتاب: حمًّىٰ سنة ٢٠٠٠ ـ للمؤلف ـ الفصل التاسع والعاشر.

أهلها أثناءها في الدفاع عنها لكن دون جدوىٰ، وبعد أن مضىٰ عليها خمسة قرون كاملة في ظل حماية دول الخلافة الإسلامية المتتابعة؛ سقطت مدينة القدس في يد عباد الصليب في نهار يوم الجمعة في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢هـ في عهد خلافة المستعلي بالله الخليفة الفاطمي والمستظهر بالله الفاطمي.

وتهيأت لأهل الصليب الفرصة لأول مرة بعد أن أضاءت الدنيا بنور الإسلام أن يسددوا للمسلمين طعنة في الصميم.

دخل الصليبيون المدينة بعد فرار (افتخار الدولة) وحرسه، وانطلقوا في هوس و(هستيريا) يزرعون الرعب والدمار والخراب، منتشين بما أصابوا من نصر رخيص علىٰ حاكم أرعن، ولم يسلم من حقدهم وبطشهم رجل ولا امرأة ولا شيخ ولاطفل.. قتَّلوا في الجميع دون تمييز، وأراقوا الدماء دون تورع، وأشاهوا وجوه الناس وساؤوها فلم يسلم من ظلمهم خد أيمن ولا أيسر.

واستمرت المذبحة الرهيبة طوال يوم الدخول وليلته، واقتحموا المسجد الأقصىٰ في صباح اليوم التالي، وأجهزوا علىٰ من احتموا فيه، واصطبغت ساحات المسجد بدماء العباد والزهاد والركع السجود، وتوجه قائد الحملة الصليبية (ريموند) في الضحىٰ لدخول ساحة المسجد ملتمساً طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبته [1]، وكان وقت هذه النكبة في شهر يونيو (حزيران) ١٠٩٩م.

وذكر المؤرخون أن الصليبين قتلوا نحواً من سبعين ألفاً، وقيل خمسة وستين ألفاً، حتىٰ كان النظر لايقع إلا علىٰ أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام

(١) انظر الكامل، لابن الأثير(١٠/ ١٩٤).

المقطوعة في الطرقات والساحات، ونهبوا جميع الأمتعة، وخربوا أثاث المسجد الأقصى ومسجد الصخرة، ونهبوا القناديل التي بلغت نيفاً وأربعين قنديلاً من فضة، كل قنديل وزنه ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا نيفاً وعشرين قنديلاً من ذهب(١).

ظل الصليبيون في بيت المقدس يشيعون فيه الإفساد مدة إحدى وتسعين سنة، إلى أن أذن الله بالنصر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فإنه لما اشتد عزمه لهذا الفتح المبين، خرج من دمشق وبدأ بالغزو من السواحل إلى أن وصل إلى عسقلان، وكان مراده التوجه لفتح بيت المقدس، إلا إن الموقف كان يحتاج إلى جسارة، لكثرة ما في الأرض المغتصبة من الفرسان والعَدد والعُدد، وكونها أصبحت كرسي دين النصرانية.

وكان في بيت المقدس شاب من أهل دمشق قد أخذه الصليبيون في الأسر، فكتب إلى صلاح الدين الأيوبي أبياتاً، وأرسلها له على لسان المسجد الأقصى، جاء فيها:

يا أيها الملكُ الذي ... لمعالِم الصُلبانِ مُنكِسْ
جَاءتْ إليكَ رسالةٌ ... تسعَى من البيت المقدَّسْ
كُلُّ المساجدِ طُهِّرتْ ... وأنا على شَرفي مُدنَّسْ

فأخذت الغيرة على الإسلام صلاح الدين، وتوجه نهار الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بجيشه غربي بيت المقدس، ثم انتقل إلى الجانب الشمالي وخيم هناك، وضيق على الإفرنج المسالك ونصب المجانيق، وضرب على المدينة حصاراً

(١) المصدر السابق، (١٠/ ١٩٤).

انتهى بتسليم الصليبيين للمدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ[١] .

ومما يجدر ذكره هنا، أن فتح صلاح الدين لبيت المقدس، وتطهير أرضه من الوثنية النصرانية، كان حماية في الوقت نفسه لأرض الحرمين الشريفين، إذ إن القائد الصليبي المتعصب (أرناط) صاحب قلعة الكرج، كان عازماً على الهجوم على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، بعد أن تمكن من الحدود الجنوبية لفلسطين، وقد بذل صلاح الدين جهداً كبيراً لكسر شوكة هذا القائد العنيد حتى كلل الله جهوده بالانتصار على الصليبيين، ووقع أرناط في الأسر، ولم تكد عين صلاح الدين تقع عليه حتى أمر بقتله في الحال، عقاباً له على ما أقدم عليه من جرأة في التفكير في العدوان على الحرمين الشريفين[٢] . وقد قام من جاء بعد صلاح الدين من الأيوبيين والمماليك بتصفية بقية الوجود الصليبي في الشام وبيت المقدس .

سابعاً : بيت المقدس تحت حكم العثمانيين:

انتهى العصر المملوكي بدخول مصر والشام والعراق في الدولة العثمانية ، عندما قام السلطان سليم الأول بحملة على بلاد مصر والشام، انتهت بالقضاء على دولة المماليك، وآلت إلى العثمانيين الولاية على بيت المقدس، ولكن والي مصر (محمد علي) اختلف مع الحكم العثماني بعد هزيمته في حرب اليونان التي دفعه العثمانيون إليها، ولما طالب بتعويض عما خسره في تلك الحرب لصالح العثمانيين رفضوا ذلك، فاتجه إلى ضم الشام إلى مصر، وبالفعل حصل له ذلك

(١) انظر (أخبار الدول وآثار الأول)، لأبي العباس أحمد بن يوسف القرماني ـ نقلاً عن (الروض المغرس في فضائل بيت المقدس).

(٢) انظر أطلس التاريخ الإسلامي ، للدكتور حسين مؤنس ص ٣١٠ .

فاستولى على بلاد الشام بما فيها القدس، واستمر ذلك مدة عشر سنوات ، بعدها تبخرت أحلام محمد علي في أن تكون له دولة عربية كبرى على أنقاض الدولة العثمانية أو منافسة لها على الأقل، فتقلص سلطان محمد علي في مصر بعد أن تصدى لطموحاته النصارى الإنجليز، وأجبروه على التخلي عن الشام والقدس، فعادت مرة ثانية إلى العثمانيين، وظل بيت المقدس تحت حكم العثمانيين حتى بدأت دولتهم تضعف بعد أن أصابها داء الأمم ، وبدأت القوى العظمى تنهش من جوانبها ، حتى إن نابليون بونابرت بعدما استولى على مصر عام ١٧٩٨م اتجه للسيطرة على الشام، وأطلق نداءاً إلى يهود العالم أن يساعدوه في تخليص بيت المقدس من المسلمين، على أن يمكنهم من العودة إليها؛ ولكن نابليون فشل في مسعاه للاستيلاء على بيت المقدس.

سقوط بيت المقدس تحت أيدي الإنجليز:

ولكن فشل النصارى الفرنسيين في الاستيلاء على القدس وانتزاعها من العثمانيين لم يثن النصارى الإنجليز عن تحقيق هذا الهدف، فأعاد الإنجليز الكرَّة التي بدأها الفرنسيون، فاحتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢م، ولما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م وحاربت تركيا إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء (انجلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا) انتهز الإنجليز الفرصة، وشجعوا العرب على الثورة على تركيا في الشام والحجاز، وبالفعل قام ما يعرف بـ(الثورة العربية الكبرى)، فكانت سبباً مباشراً في دخول الإنجليز القدس في ٩ ديسمبر سنة ١٩١٧م، وهو العام الذي صدر فيه وعد (بلفور) الذي يقضي بإعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين، ثم أعلنت بريطانيا الحماية على مصر وفلسطين، واستغلت انتدابها

على فلسطين، لكي تهيئ الأوضاع فيها لصالح اليهود، وهذا ما تم بالفعل طيلة ثلاثين عاماً هي عمر الانتداب، وبعدها مباشرة وفي العام ١٩٤٨م، أعلن الإنجليز إلغاء الانتداب على فلسطين، بعد أن أوعزوا لليهود بأن يعلنوا دولتهم في نفس توقيت إلغاء الانتداب. وقامت دولة اليهود وسيطرت على القدس الغربية وأعلنتها عاصمة بعد ذلك، ثم احتلت القدس الشرقية التي بها المسجد الأقصى عام ١٩٦٧م، لتعلن منذ ذلك الوقت وإلى الآن أن القدس بقسميها هي العاصمة الموحدة الأبدية لدولة (إسرائيل)، ويقف الآن خلفهم جُل نصارى العالم متنازلين لهم عن (مدينة المسيح) ـ كما يقولون ـ طمعاً في دخولهم في دينه عندما يعود!